محاضرة رقم14

مناظرة غوته لهيجل حول المطلق

أد. مونيس بخضرة

لا يختلف اثنان حول مساهمات الجبارة التي قام بها هيجل بجعله الفلسفة ضربا عالميا، وهو فعل جعل في الوقت نفسه من الفلسفة الألمانية في مركز الفعل الفلسفي العالمي، وهي محاولة تحاكي تماما الأدوار التي قام بها الأديب غوته بجعله الأدب الألماني محل متابعة واهتمام الغير به، وجعله ضمن مصاف الأدب العالمي[1].

في سنة 1806، أنهى هيجل كتابه العمدة(فينومينولوجيا الروح) وغوته أنهى القسم الأول من عمله الخالد(فاوست)، وهما كتابان بلغ بهما الفكر الألماني تقدما هائلا، ورغم هذا التزامن، إن علاقة هيجل بغوته بقت غامضة، أكثر من علاقتها بسواهما من الأدباء والفلاسفة والشعراء، رغم واقعية التفاعل الكبير الذي كان حاصلا في عصرهما بين الأدباء والفلاسفة على غرار انجذاب شيلر لكانط والشعراء الرومانسيين لشلينغ وفيخته، والملاحظ أن ما انفرد به غوته مقارنة بباقي شعراء عصره، هو أنه لم يستند في أشعاره على نصوص فلسفية كلاسيكية هو كان منتجا للفكر للتصورات الفلسفية على شاكلة فيلسوف، كما لم يستند شعره على سند فلسفي معين

كما كانت أبحاثه في العلم الطبيعية التجريب ثرية ومتميزة، أظهر فيها قدرة كبير على الإبداع والاكتشاف وخلاقة مثلها مثل أشعاره[2].

إن المقاربة بين هيجل وجوته، لا تعني في كل الأحوال أنهما مرتبطان ببعضهما البعض، أو أحدهما يشكل مدخلا للأخر، إنما هي مقاربة لقراءة الاحترام التقدير الذي كانا يكنانه لبعضهما البعض، خاصة باتفقهما على موضوع مشترك في المضمون، سماه غوته ب(الظاهرات الأولى) وسماه هيجل ب: المطلق.

حسب مذكرات غوته بما فيها الرسائل التي كانا يتبادلانها، أن المدة الزمنية التي جمعته بهجل كانت ثلاثة عقو، كما سبق لهيجل وأن توقف في كثير من فقرات

---

[1]في هذا السياق، سنركز على الحدث الفكري الكبير الذي عرفه القرن التاسع عشر حول تفاعل الفلسفة والأدب، والذي من خلاله سنظهر التقدم الكبير الذي حصل على يد كل من هيجل وغوته، وأن الثقافة الألمانية اكتملت على يدهما، عبر فينومينلوجيا الروح ورائعة فاوست(بتصرف)

[2]كارل لوفيت، من هيجل إلى نيتشه، ترجمة ميشل كيلو، ج1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص13.

كتابته على مهبة غوته الشعرية والفلسفية، وقد تحدث عنه بالتفصيل في دائرة المعارف خاثة عن نظريته في(الألوان) .

ففي 24من نيسان سنة1825كتب هيجل رسالة إلى غوته يشرح فيها وجهة نظره منه إلى درجة الخشوع حسب تعبير، يقول فيه: لأنني عندما ألقي نظرة إجمالية على مجرى تطور الفكري، أراك مندمجا فيه، فاعتبر نفسي واحدا من أبنائكم. لقد منحت حياتي الداخلية القوة على مقاومة التجريد منكم، وسار مجراها مهتديا بالأشخاص الذين أبدعتموهم، فكأنهما شعلة تضيء لها الطريق، وهي نفسها العبارة قال صرح بها غوته بعد وفاة هيجل. قائلا: إنني أشعر بأسف عميق لخسارة قائد الصفوف هذا ذو الأهمية الكبرى والموهبة الفائقة...الذي كان رجلا وصديقا عميق المعرفة متعدد النشاطات، لقد كان أساس نظريته خارج دائرة رؤيتي، ولكن عندما كان عمله يمسني أو حتى ينفذ إلى تطلعاتي، فإنني كنت أجني دوما منه فائدة فكرية حقيقية).[3]

كان الأساس الفلسفي لهيجل أقرب لتطلعات غوته، وهذا ما نلمحه من دراسته لأعمال تلاميذة هيجل خاصة ل: هاينريش حول المأساة التراجيدية في العصر القديم، وأيضا لفون هينبخ الذي كان يلقي محاضرات في جامعة برلين حل طبيعة الألوان. وفي هذا الشأن خاطب غوته لفيلسوف القانون "جانسن –هو أحد تلاميذة هيجل- قائلا: إذا كانت الفلسفة تجعل من واجبها أيضا مراعاة الأشياء الموضوعات التي تعالجها، فإن فاعليتها ستزداد بقدر ما تحتك بالعلماء التجريبيين. عندئذ سينشأ السؤال التالي: هل يستطيع المرء أن يكون باحثا ومراقبا عظيما وفي الوقت نفسه معمما وملخصا ذا شأن؟

ويضيف غوته قائلا: إنني أقر بمعارف هيجل الواسعة حول التاريخ والعلوم والطبيعة، لكنني أؤكد أن أفكاره الفلسفية يجب أن تعدل على ضوء الاكتشافات ستفقدها، إن هي لم تعدل طابعها القطعي[4].

من ظواهرية غوته إلى مطلق هيجل:

إن ما جذب غوته لهيجل كان مبدأ عمله الفكري، الذي يقوم على التوسط بين وجود الذات ووجود الأخر أو بلغة غوته(وضع هيجل لنفسه في الوسط بين الذات

[3]المرجع نفسه، ص14.
[4]المرجع نفسه، ص15.

والموضوع، بينما أبرز شلينج رحابة الطبيعة، وفيشته الذاتية وذروتها[5]. يقول غوته(حيث يتلامس الموضوع الذات، تكون حياة، وحين يحشر هيجل نفسه من خلال فلسفة التماثل في موقع وسيط بين الموضوع والذات، ويتمسك بإصرار بهذا الموقع، فإننا نود عندئذ امتداحه)[6]، وفي المقابل شعر هيجل بالذاتية الجوهرية لغوته وبالمحتوى العالمي لوجوده الذاتي.

من خلال نقده للذاتية العديمة للمضمون التي ظهرت في أعمال الرومانسيين، يجد هيجل في تشخيص غوته للمرض العام للعصر سندا قويا لأطروحاته، فهي ذاتية بقت عاجزة عن الانخراط في عالم الأشياء، وإيجاد الإنسان بذاته وأن يكون لذاته، بين ما هو داخلي وما ه خارجي، كان منذ كتابه المنطق والموسوعة المحرك الأصلي لفلسفته في مفهوم التوسط، التي أراد من خلالها أن يصير للجوهر ذاتها، وللذات جوهرا، بالقدر نفسه يظهر في التفلسف البدائي لدى غوته على مشكلة التطابق بين الذات والعالم.

في هذا الشأن يقول غوته: لا يستطيع المرء وهو يتأمل الوجود التخلي عن تكوين الأفكار والمفاهيم، التي يحال بمساعدتها إدراك جوهر الله أو الطبيعة[7].

لقد سعى غوته وانطلاقا من هيجل معالجة الفجوة الحاصلة بين الفهم والتجربة، التي جعلت من قوامنا عاجزة عن تجاوزها، وبغض النظر عن هذا العجز، فإن طموحهما كان معالجة هذه الفجوة بالعقل والقدرة على التخيل والإيمان، والإحساس والجنون حتى وان تطلب الأمر اللجوء إلى الحماقة حسب تعبير غوته. وفي هذا المسعى يعود غوته من جديد للاستعانة بأحد الفلاسفة الذي توقف مطولا عند هذه الفجوة، هذا الفيلسوف هو كانط بالتحديد كتابه(نقد ملكة الحكم)، مقارنة بكتاب(نقد العقل الخالص) الذي أعرب غوته حله أنه يبقى خارج اهتماماته، باستثناء ما ورد فعل عن دور ذواتنا في المعرفة ودور العالم في وجودنا الروحي المتعين، وهنا يقول: أما الغوص في متاهة نقد كانط للعقل الخالص، فقد حمتني منه موهبتي الشعرية حينا، والحس البشري حينا آخر، رغم اعتقادي بأني فهمت بعض الفصول ووجدت فيها ما أفادني خلال عملي[8].

---

[5] رتشارد كرونر، فريدريك كوبلستون، روبرت سلمون. تطور هيجل الروحي، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، القاهرة، مصر، ص19.

[6] كارل لوفيت، من هيجل إلى نيتشه، المرجع السابق، ص17.

[7] المرجع نفسه، ص18.

[8] المرجع نفسه، ص18.

موقف غوته من فلسفة كانط تغير تماما منذ صدر كتابه(نقد ملكة الحكم 1790) الذي اعترف له غوته بأنه فتح له حقبة حياتية مفعمة بالسعادة، بحيث أضاءت ملكة الحكم الجمالية ملكة الحكم اللاهوتية والعكس صحيح. في هذه الفكرة يقول غوته: لقد أسعدني كل السعادة أن فن الشعر وعلم الطبيعة المقارن هما قريبان إلى هذا الحد ويخضعان كلاهما لملكة الحكم نفسها...والحق أن كانط يبدو هنا وكأنه يشير إلى فهم إلهي، إذ نرتقي بما هو أخلاقي، ومن خلال الإيمان بالله وبالفضيلة وبالخلود، إلى صعيد أسمى، ونقترب بأنفسنا جدرين بالإسهام الفكري في منتجات الطبيعة، التي هي خلاقة دوما، والتي لا نفتأ نتأملها، فإذا ما نفذت في البداية دن وعي، بحافز محض داخلي، إلى تلك الصور الأولى وذاك النموذج الأول، ونجحت في تقديم عرض مطابق للطبيعة، فإن شيئا لن يستطيع بدءا من هذه اللحظة، أن يحول بيني وبين النجاح في مغامرة العقل، كما يسميها شيخ كونجسبرغ نفسه[9].

من هذه الزاوية انطلق هيجل في دراسته لمسألة المعرف والإيمان سنة 1802، مستخلصا نتائج قراءته لنص نقد ملكة الحكم، وهي النتائج التي ألغت المثالية الذاتية وارتقن بملكة الفهم إلى مستوى العقل.

وفي أخير نجد أن كل من هيجل وغوته وحتى شلينج أنهم أخذوا على عاتقهم مهام تجاوز ملكة الفهم الكانطية، ويضعوا أنفسهم في مكان الوسط بين وجود الذات ووجود العالم(الموضوع) ولكن الفراق يظهر في أن غوته أدرك أن التوسط يكمن في الطبيعة المرئية، في حين أدركه هيجل في الروح التاريخية، وعليه اعترف هيجل بمكر العقل، في مقابل اعتراف غوته بمكر الطبيعة.

الفكرة واحدة والقراءات متعددة:

رغم التباين الكبير بين غوته وهيجل حول مفهوم المطلق، الروحي الطبيعي، إن أن هذا التباين هو فقط شكلا ولا يعكس تعارضهما حول الفكرة المشتركة، وبل هو تباين في القراءة، فحديث غوته عن الطبيعة هو حديثه في صميم العقل، العقل المتجلي والحي، مثلما تجسد الظاهرات الأولى عينتها عقلا المبثوث في جميع المخلوقات، والفكرة نفسها يعبر بها هيجل عن مفهوم الروح أي العقل الكلي، وعندما يتحدث هيجل عن الطبيعة فهو يقصد بها الوجود الأخر للفكرة، والروح

[9]المرجع نفسه، ص19

هي طبيعة سامية، وبسبب هذا التباين كان غوته يردد ساخرا: إنه سيقدم ظواهره الأولى هدية للمطلق، ومع ذلك لم يكن يروق له مفهوم المطلق كمصطلح[10].

كتب غوته إلى كنيبل بعد زيارة قام بها هيجل إليه قائلا: أثارت المحادثة لدي الرغبة في اهتبال فرصة أخرى لقضاء وقت أطول معه، لأن ما يبدو في النصوص المطبوعة لرجل كهذا غامضا وعصيا عن الفهم، بسبب عجزنا عن تملكه وتحويله مباشرة إلى ما يخدم حاجتنا، يصبح بسرعة ملكنا في الحديث الحي والحوار، بعد أن نتأكد من اتفاقنا معه في الأفكار المقاصد الأساسية[11].

يقول هيجل: ما دمتم ياصاحب السيادة توافقون على الاتجاه العام لنمط تفكيري، فإن ذلك سيعنيني على التمسك به أكثر من أي وقت مضى، واعتقد أنني قد كسبت أشياء هامة من جوانب عديدة، فإن لم يكن الكسب للقضية برمتها، فإنه قد اعكس بالتأكيد على انجاز بالأعمال التي قمتم بها باشادتها واعلاء صروحها[12]. وهو خطاب كتبه هيجل إلى غوته، وهذا يعكس أن عملهما الفكري والفني كان متداخلا بدرة كبيرة، والذي ساهم في رحابة فكرهما وسموه فوق النظرة اليومية للعالم.

وهما معا يسعيان إلى إيجاد تربية تأسس لوجود مفعم بالعالم، مموضع وخارج من ذاته، أما انخراطهما الذاتي في عالم موضوعي لم تشوهه بعد الآلات فهو يميز الرابطة التي تشد غوته إلى هيجل في قضايا نظرية الألوان، وقد كانت منذ البداية نقطة التماس المشخصة بينهما، مع أنهما لم يحظيا بالاعتراف في هذا المجال بالذات من فلسفة الطبيعة، حيث كانت قضايا نظرية الألوان هي النقطة الفارقة بينهما وأظهرت اختلاف أسلوب تفكيرهما.

---

[10] هيجل. تاريخ الفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، ط3، 1997، القاهرة، ص65.
كارل لوفيت، من هيجل إلى نيتشه، المرجع السابق ، ص21.
[12]المرجع نفسه، ص21.